

غريزة الأنانية وعلاقتها بالإجرام

للاستاذ محمود يوسف

الأنانية كيفية من كفيات النفس وحالة من حالاتها الفطرية التي لا يمكنها الانفصال عنها ، فهي صفة ثابتة لكل حي طالما كان كل انسان يحب البقاء ، بل إن حب البقاء مشترك بين جميع الناس والكائنات ، كلها يعيش ويدافع عن نفسه .

وللأنانية عدة مظاهر ، فكما تكون دافعة لصاحبها إلى حب الخير لشخصه والعمل على تشييد سعادته ، فهي أيضا تكون مبعثا إجراميا .

الأنانية قوة باعتبار أنها تعمي صاحبها ، ولكنها متى ضعفت ، أعنى أنها متى خرجت بقوتها عن حيز الاعتدال ، كانت هي الضعف ، وأصبحت مرضا من أخطر الأمراض .

وبحكم أن الأنانية ملتصقة بحس كل شخص فهي معرضة لحالات ضعفه ، ومعنى ذلك أن بكل انسان كية أنانية خاصة ، واستعدادا محدودا لقبول الاجرام يتقده منه وجود هذه الأنانية في مستواها اللازم المعتدل وعدم طغيانها .

وإذا قلنا الإحرام ؛ فلسنا نعنى مثلا القتل والسرقة وسائر الاعتداءات التي ينتهى مصير أصحابها إلى (طرة) وزميلاتها . ولكننا نعنى أيضا جرائم أخرى نفسية منها تلك الحالات الفكرية التي تؤثر على ميول صاحبها ، وتدفع به إلى الشعور الدائم بالأحزان والمحوم والآلام في كل نواحي الحياة ، فيحس بالعبوسة والنكد في جميع ما يرى حتى في ثمرات الموسيقى ومنظر البستان الناضر البهيج ، ويتذوق الحسرة في جميع ما يجد من خواص الحياة المختلفة ، حتى واو كانت مما تشعر النفس بالراحة والطرب والطمأنينة .

الحقد :

سبب هذه الحالات الإجرامية النفسية ومصدرها الأول هو الحقد ، الحقد الذي لا ينو إلا عند ما تنبه الأنانية وتوقظ ثورته في النفس .

والحقد يعرض للأخطار سواء منها ما يتعلق بالروح أو بالجسم . وقد قرر العلماء أن المجموع العصبي والجهاز الهضمي معرضان دائما للأذى بعوامل هذا الحقد ، وكذلك الكبد والقلب أيضا يستهدفان لأعظم تأثير واضطراب تبعثه زعة الحقد اللئيمية ...

والأنانية المتطرفة خروج على الإنسانية بمعناها الصحيح ، لأن الإنسانية حب متبادل وعطف متصل ومشاركة في كل مظاهر الحياة .

الإنسانية جامعة واحدة ، علومها الحمية والخير والفضائل ، وأمانتها قادة العدل والاحسان ، فن هذا تكون الإنسانية الحقة ميدانا فسيحا وروضا جميلا يستلشق الانسان منه غير السعادة

والهناء ، فهل هذا ما يشعر به كل إنسان منا ؟ الجواب بلا شك ، لا ، وأسراكم في تلك الأذنية "صارحة" ولأننا نفوسنا تماما فتحلت الميول العالية والضمير وظلم الضعيف وما أكثر الضعفاء بيننا ، وكل نحن نكثر من عددهم ونضاعف أمراضهم وآلامهم ونعرض مصرنا معهم لاستفحال حالة البؤساء والمظلومين ، وسبب ذلك هو الأذنية التي لم تدع أمامها شيئا إلا اجترته كالسيل المنهمر .

وعند هذه النقطة يمكننا أن نضع أيدينا على باعث فواجع القتل والظلم ومآسى العدوان على البائسين ، وهضم حقوق الأيتام والمحتاجين .

فإن سررنا بأبصارنا على السالبة وعابري الطريق وتصفحنا سمعاتهم لرأينا على سماء وجوههم العيوس والاصفرار والدمعة الحائرة . ولو سألنا كلا من هؤلاء النساء عن سبب أحزانهم لأجابنا صمته بأنه مظلوم ؛ وأنه راغب في الفرار من الاعتداءات الفردية والاجتماعية ، متضيق من انحطاط أخلاق الناس شاعر بأن المجتمع لم ينصفه لأنه إناني متطرف .

من هو الأناني المتطرف :

من صفات الأناني المتطرف أن تراه متعبا لا يثبت على حال ، شديد الانفعال والتأثر من أجل نفسه ، ميالا إلى كل ما كان محاطا بالتموض ، شغوبا بلعب الميسر بشكل شنيع ، كثير الزهو بنفسه بعيد المطامع مع كونه ضعيف الإرادة ، مترددا في أكثر أعماله الخيرية متطورا في البخل أو في الإسراف ، ميالا للقيادة ، وهو دائما يفيض التروى والاثبات يميل إلى التلق والخذاع ، مولعا بالمجادلات والمنازعات ، قليل التصادم في أوائل حياته ، مشتت التفكير في أحوال كثيرة شديد الخوف والحذر .

أما الأناني المعتدل (أو الإنسان المقبول شكلا وموضوعا) فتراه مملوءا حياة ونشاطا ، خفيف الحركة ودودا بساما للحياة ، ميالا للعلم والعمل متصرا لمبادئه ، وهو دائما ساكن هادئ ، متمسك بالصدق والإخلاص ، طيب القلب ، سريع الغضب ، سريع الرضاء . فيه بساطة وفيه دهاء ، عشرته لا تحلو من لذة ممتازة ، قوى الملاحظة مملوءة بالقناعة النفسية بطريه المدح والثناء ، قوى الإرادة في مواقف خاصة هزيلة في مواقف العاطفة ، سريع التعرف إلى الناس واكتساب الأصدقاء ، جديد الأفكار محب للآداب واقتنون ، معتدل في المثابة متدين راغب في التقوى .

والآن ، وقد ألمنا ببعض صفات الأناني المتطرف والمعتدل فلنرجع إلى بطل السوء أو الأذني المتطرف الذي أحال الحياة جهادا شاقا مريرا فكأن تفكيرنا سببا مستمرا جعل الإنسان متناقضا مع نفسه ومعرضا لكثير من النزعات والأهواء المضطربة .

لقد أخرجت الأذنية هذا الإنسان الأناني المتطرف إلى شذوذ الإجماع وجعلت منه في أكثر الحالات مزاجا من الشر وأسباب الخطر . فأصبح متفتنا في الأذى لا يهيمه

إلا إشباع نفسه وملذاته مهما يكلفه ذلك من ثمن ويكون هذا الثمن غالياً ، ما نشاهده وما نتألمنا به الصحن من فظائع اجترفت التعليم والأفكار والعقول ، وابتاحت للإنسانية والأخلاق ، واعتدت على الأديان وكل معاني التفضيلة .

ألم تسمع أو تقرأ عن فتاة قتلت بالسهم أسرته المكونة من سبعة أشخاص لأنهم مانعوا في زواجها من خفيء بالبلدة .

ألم يبلغك خبر رجل طوبى بنفقة ابنته فقتل فلذة كبده البريئة هروبا من الفاقة وانتقاما من أمها .

ألم تقرأ أو تسمع حادث تلك الأجنبية التي شرعت في قتل أمها وأبيها بالسهم فأتى الأب وأبنته ابنته في موته بأبشع التهم وذلك من أجل عشيقها للاستيلاء على المال .

ألم تقرأ في جريدة الأهرام الغراء تحت عنوان (إجرام وحشي) أن وزارة الداخلية تمقت من أسيوط أن أحد المحمدين على النوع آدمي وسمه أمين عبد الحق من الرواية قتل أخوين له وولدى أخيه الأكبر القليل طمنا بالسكين ، وذلك لأن أخاه الأكبر زوج أختا لقتل أصغر منه قبله فخذ عليه حقدا وحشيا وفعل فعلته الأثيمة واعترف بالجرم .

ألم نسمع بالألم التي حرضت على قتل ابنها لزواجه من فتاة لا ترغب فيها تلك الأم .

ألم تقرأ حادث الولدين الشقيقتين اللذين قتل أباهما بقرع بصر من أمهما بقرية العطف من أجل منزل قديم .

ألم تسمع عن حادث الطبيب الكبير الذي تأمر على صديقه المحامي الذي أحلص له وكرمه فأفسد عليه زوجته وطاقها منه وتزوج منها بعد أن تركت أربعة أطفال لزوجها ، ولم تكتحل عينها منذ أربعة سنوات بمشاهدة أطفالها وهي الآن محرومة من رؤيتهم ومشاهدتهم .
ألم تقرأ أو تسمع عن وحوش الإنسانية الذين فتكوا بالفتاة الزافصة من أجل دراهم معدودة .



هذه بعض صور من الجرائم التي أدت إليها الأنانية المجرمة في ميدانها المتسع . وكمن الجرائم ولدتها هذه الأنانية ولولاها لما وقعت ولما ارتكبت .

ويقول بعضهم إن التعليم ينقذ من غرائز الشر ، فأقول نجلا متألما هل كان التعليم منقذا من تلك البلايا الفادحة والمصائب العديدة التي غمرت الحياة دماء وظلما .

كلا وألف كلا ، فالأفأكون والدجالون والخالئون السفاكون والداسون والمحتالون أكثرهم من المتعلمين الأذكياء المفكرين ، لم يعصمهم علمهم من غارات الشهوات ولم يرد عنهم غوائلها الأثيمة .

ماذا فعلنا بالأنسودة العذبة التي تتغنى بها الجماعات ، وتسعى إليها الأفراد ، ألا وهي التعليم للجامعة الإنسانية ؟

لم يكن العلم عمادا للحياة ولا دعائها الأولى للخروج من الظلمة إلى النور ومن الشقاء إلى السعادة ومن المرض إلى الشفاء ، لأن عوامل الأنانية المتطرفة الهدامة تمكنت من أن تحول العلم إلى بقلة ضارة ، فأحدثت تمردا سيئا في التفكير استحكمت به الأنانية المجرمة ، وقلبت جميع القوى الحسية في الإنسان إلى معاول مقوضة للفضائل ، فخضع الإنسان ذا باسمه متلذذا يشاهد تلك الفضائل حادثا مرناحا بل يرتكبها ويترفها .

لقد خرج كثير من الناس عن حد الاعتدال في كل شيء ، فدعت بهم أنانيتهم المتطرفة إلى هذا الإجرام المؤلّم الذي جاء نتيجة الإسراف في كل شيء ، والإسراع إلى كل شيء ، والتلف على كل شيء ، والطمع في كل شيء . بذلك نتج الانقلاب المائل المذموم في جميع أطوار الحياة الاجتماعية ، وكان سببا في تكوين نصف المجرمين في العالم ، حتى لقد فكر العلماء في معالجة المجرمين قبل أن يفكروا في عقابهم .

إن الأنانية المجرمة جعلت الإنسان ينسى نفسه ومشاعره وضميره ونداء العقل فيه ، وينسى النظام وينسى الكرامة الحقة ، ويرتمى في أحضان الجريمة ، وما زال بها يمانعها مندفعاً بأنانيته الطائشة إلى طوفان إجرامى أغرق العالم في الألم .

فما السبيل إلى مكافحة هذه الأنانية المجرمة أو تخفيفها ؟ السبيل إلى ذلك اتباع أوامر الدين ليخرج الإنسان من هذه الظلمة ، وأن يراقب نفسه في كل صغيرة وكبيرة ، ومماومه لداء الشر ودوافعه .

عندئذ تنكمش الأنانية الطاغية شيئا فشيئا ، ولانعود إلى الفوضى الاجتماعية الخطيرة التي تهدد العالم بالدمار والتي تتعمق بها حفر الهلاك .

إلى المحبة ، إلى الوئام ، إلى النهل بنعم الله ، إلى الاخاء ، إلى الواجب والحق ، إلى العدل .

محمود لطفي

إنما النفس الإنسانية طاهرة باصلها ، فلا يتكلف الذي يريد أن يكون رجلا طيبا إلا أن يحاسب نفسه على الشر ، ويأفها إلى فعل الخير . وأنها باصلها القدسي قابلة لأن تشفى من أمراض الغضب والحسد والتصوير ينبوء غزيرا للحياة ، تعرف كيف تحب العدو كما تحب الصديق .

أحمد لطفي السيد ، ش